الأدب فى خدمة المجتمع

محاضرة معالى فؤاد سراج الدين باشا
وزير الشؤون الاجتماعية
بكلية الآداب

حضرة الأستاذ الدكتور العميد
حضرات الأساتذة الأجلاء
سيداتى . سادتى

كرمتمونى بموقفى بينكم وأنتم أرباب الأدب وأقطابه ، وحماة البيان ورعاته ، ثم كرمتمونى بما تفضل به الأستاذ العميد من ثناء دل على سخائه وسخائكم ، والأدباء منذ خلقوا ، معروفون بسعة البذل وفرط السخاء .

وإنى وأنا بين المناطقة والفصحاء ، لأرغب عن المقابلة والمبادلة ، بل أوثر الفرار من المساجلة والمنازلة ، وأقنع بالاعتراف بجميلهم ، وأقبل مغتبطا أن أكون مدينا بفضلهم وهم بحمد الله دائنون سماح ، لا يستعجلون حقهم ، ولا يحرجون مدينهم .

وحى الجامعة

والآن تتراءى أمامى صور الماضى الجامعى الجميل ، فأذكر الشباب فى ازدهاره ، والذهن فى تفتحه ، وأذكر الزملاء والأساتذة ، والكتب والمحاضرات ، والحضور والغياب ، والاستذكار والامتحان ، والخوف والرجاء ، أذكر ذلك كله فيعاودنى الحنين الى مسافات ، وألتمس من وقفتى هذه رجعة الى الأمس المحبوب ، فأنا اليوم مستذكر قبل أن أكون محاضرا .

والواقع سيداتى وسادتى ، أنه ما أتيحت لى فرصة لقاء إخوانى الجامعيين ، إلا عددت نفسى فى السعداء المجددين ، وخالجنى ذلك الشعور الذى يخالج المرء بين أهله وذوى قرباه عند ما يأنس بهم بعد طول وحشة ، ويلقاهم بعد طول فراق ، فينهل من موردهم العذب ما يملأ العين والقلب .

وما لقيت الجامعيين إلا وذكرت تلك الأيام الباسمة ، التى كان كل منا يعد فيها عدته للجهاد ، ويتزود للنضال بخير زاد ، حتى إذا خرج للمعركة ، قويا مدججا ، كان حريا أن يفوز وينتصر ، جديرا أن يبلغ الأمانى ويظفر بالآمال .

وما ذكرت هذه الأيام ، إلا شعرت بالفخر والعزة ، وتضاعف اعتدادى بنفسى واعتزازى بماضىّ ، وثقتى بمستقبل ومستقبل العلم والمتعلمين فى هذه البلاد .

ذلك أن كل نبت سقته الجامعة بمائها نما وأثمر ، وكل شجرة فى روضها المخصب أمست ثابتة الأصول ، سامية الفروع ، دانية القطوف ، وإن كل منتم الى جامعة العلم ، منتم الى أكرم الأرومات ، وأشرف الأسر ، بل مدفوع بطبعه الى أشرف الغايات .

أجل — أيها الأخوة — إننى سعيد اليوم بلقائكم ، فخور بانتسابى إليكم ، شاكر عميدكم الكريم ، أن أتاح لى فرصة الاجتماع وإياكم ، مشترك معكم بقلبى فى الأمانى الجميلة التى تتراءى فى الأفق لكم ، حقق الله لكم ولمصر مانبتغيه جميعا من الأمانى والآمال .

سيداتى وسادتى :

اختار لى عميدكم عنوان هذه المحاضرة . لأحدثكم عن (الأدب فى خدمة المجتمع) وقد جال بذهنى أنه يريدنى على أن أحدثكم عن (الأدب فى سيادة المجتمع) .

فكيف سما الخادم اذن الى منزلة السيد ؟

بل كيف يسوغ لى ، أن أزعم للعلماء والمتعلمين فى هذا الحفل ، أن الوضع بعد ذلك هو هو لم يتغير ، وأن موضوع المحاضرة لم يتبدل ، وأن المعنى الذى ننشده فى كلا اللفظين لم يتحول ، مع الفوارق المعلومة بين الخادم والسيد .

تعريف

اسمحوا لى أولا ، وقبل البت فى هذه القضية ، أن أحلل الشخصية المعنوية لهذا الخادم السيد ، لفظا ومعنى ، توطئة للتنويه بخدماته ، خادما أو سيدا ، والإفادة بما قدمه ويقدمه للمجتمع من أسباب النهوض وعوامل التقدم .

يقولون إن كلمة (الأدب) من الألفاظ العربية القليلة التى زكتها النباهة ، ورفعها إلى قمة المجد والخلود صيتها البعيد ، وقد اختلف اللغويون فى صحة نسبها ، فقال بعضهم إنها يونانية استضافتها العربية ، ثم تبنتها فأصبحت منها ، وقال آخرون إنها أخذت عن قبائل الشومريين الذين كانوا يقطنون جنوب العراق فى فجر التاريخ ، وكان معناها عندهم (الإنسان) ثم تطورت على الدلالة على ما يمتاز به الإنسان من الصفات المثلى ، والخلال الرفيعة ، وقال فريق ثالث إنها عربية أصيلة ، فالأدب بمعنى الدعاء ، لأنه يأدب إلى الفضائل وينتهى عن القبائح

على أن الخلاف لا يقف عند صحة نسب الكلمة ، بل إنه يتعداه إلى مدلولها ومعناها :

فقد استعملها شعراء الجاهلية بمعنى السلوك الحسن والعادة المحمودة ، ثم استعملوها بعد ذلك بمعنى الموروث أو المكتسب من الشمائل الطيبة والأخلاق الكريمة ، وأخيرا استعملوها بمعنى التهذيب على المأثور من المحامد والتقاليد .

أما أدباء الإسلام ، فمنهم قائل إن الأدب هو الدأب أى العادة ، وقائل إن الأدب هو التعليم ، وحجتهم فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام " أدبنى ربى فأحسن تأديبى " وكان

النبي يرد بهذا الحديث على الامام على بن أبي طالب ، وهو يعجب إذ سمعه يحدث وفود العرب بما لم يفهم على أكثره ، وقائل إن الأدب هو الفعل الذى يتزين به المرء فى الناس وقائل إنه المنهج الذى يجب على الإنسان أن يسلكه فى تفهم علم من العلوم أو القيام بأى تصرف من التصرفات ، فيقال آداب البحث والمناظرة ، وآداب السلوك ، وآداب المائدة ، ونحو ذلك — وقائل هو الأناقة فى المطعم والملبس ، واللباقة فى الحديث والسمر والمنادمة وقائل إن الأدب علم يراد به الاحتراز من الخطأ فى كلام العرب ، نطقا وكتابة . وقائل إن الأدب هو كل علم غير العلوم الدينية — فالطب والهندسة والكيمياء أدب ، والشعر والنثر والموسيقى والغناء أدب ، وأيام الناس وتخطيط البلدان وعلم النجوم أدب ، لأنها جميعا ليست من علوم الدين .

فأما المحدثون فقد عرفوا الأدب بما ينطبق على روح العصر ، فقالوا إنه التعبير عن خواطر الأفئدة وسوانح الأفكار ، بأسلوب محبب إلى النفس ، مع الإلمام بالقواعد التى تعين على ذلك ، فكل الناس أدباء ، أو ينبغى أن يكونوا أدباء ، لأنهم جميعا مضطرون إلى التعبير عن خواطرهم ، والافصاح عن رغباتهم ، وإنما يتميز العباقرة عن غيرهم ، بالإجادة والدقة والاتقان .

سيداتى ، سادتى

هذا عرض سريع ، لقليل من كثير ، من التعاريف التى أراد بعض اللغويين والأدباء فى عصور مختلفة أن يحددوا بها معنى الأدب .

وها أنتم ترون أن مدلول الكلمة يتغير ويتطور مع الزمن ، فهو كالحياة نفسها ، لا يستقر على حال ، ولا يتقيد بحدود .

على أنكم لو أجزتم لى أن أفاضل بين مختلف هذه التعاريف والآراء ، لقلت (إن الأدب هو مجموعة المثل العليا للشعب ، وسجل العادات والتقاليد وأساليب الحياة والأمانى التى يتميز بها هذا الشعب عن سواه) .

ولا شك أن هذا التعريف ، لا يراد به التحديد القاطع لمعنى الكلمة ، لأنها كما قلت — تتطور مع الزمن ، وتتغير مع الحياة ، ولكنه — فقط — تعريف يلخص غيره من التعاريف ويجعل آراء القدامى والمحدثين الذين حاولوا أن يرسموا لهذه الكلمة حدودا ، وأن يضربوا حولها نطاقا لا تتعداه .

ومهما يكن من شىء ، فانه لو صح تعريفنا للأدب ، لكان ماظننت يقينا ، وما جال بخاطرى أنه الخطأ صوابا ، من أن عميدكم الكريم ، انما يريدنى على أن أتحدث إليكم عن (الأدب فى سيادة المجتمع) وليس فى خدمته ، لأن الأدباء هم الذين يوجهون المجتمع إلى مثله العليا ، ويرشدونه إليها بما يملكون من مواهب ، وبما فى أيديهم من جاه وسلطان ومقدرة ، ولأنهم أيضا ، حفظة سجل العادات والتقاليد والأمانى للشعب ، فهم لا يتركون شيئا من آثار العصر إلا سجلوه ، ولا يغادرون من أحواله كبيرا ولا صغيرا إلا دونوه .

وهكذا ترون أن الأدب هو سيد المجتمع وليس خادمه ، اللهم إلا أن يكون الأدب خادما لأنه السيد ، أو سيدا لأنه الخادم ، وسيد القوم خادمهم كما يقولون .

سيداتى وسادتى

على ضوء هذا التعريف المختار للأدب ، وهو تعريف غير مبتكر ، نستطيع أن نقول إن الحضارة الانسانية بجميع أصولها وفروعها ومقومات حياتها ، مدينة بوجودها للأدب ، لأنه كان المرآة الأبدية التى انعكست عليها صور التراث العلمى للمدنيات الخالية ، والكنز الذى تحدست فيه آثار الفكر وثروة اللغات فى العصور الماضية .

وهل كانت هناك وسيلة أخرى — غير قلم الأديب وقرطاسه — لجمع شتات هذه الأمجاد العلمية ، وتلك الفتوحات الفكرية . وتسجيل هذا الاشراق الوجدانى الذى تهيأ للانسان منذ فجر التاريخ الى اليوم .

وهل كانت هناك سبيل ثانية — غير سبيل الأدب — تسلكها الأجيال المتعاقبة فى جهادها الطويل العريق لبناء صرح الحضارة ، مقتفية آثار الخطى الأولى للمعارف الانسانية ، حلقة فحلقة ، حتى أوفت على الغاية ، أو أصبحت قريبة منها .

وهل كان فى مقدور أعيننا وعقولنا — لولا الأدب — أن ترى وتعى ، مشهد بحر العلم ، ينبثق منه هذا الوادى فيضىء الوجود ، وينسج خيوط الحضارة البشرية ، ويمتد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، فيبدد ظلمات الكون الأعمى ، ويأخذ بيد الغارقين فى فيافى الجهالة . ويؤلف من هذا النور المشرق — قبل ميلاد التاريخ — معالم الحضارة المصرية القديمة ، التى هى أم الحضارات ، ومطلع شمس المدنيات .

وإذا كان المجتمع حلقة صغيرة فى سلسلة هذا الكون العظيم ، وكانت هذه الحلقة متصلة بما قبلها ، مرتبطة بما بعدها ، فقد تولى الأدب وصل هذه الحلقات بعضها ببعض ، بما أورث الأبناء من علوم الآباء وفنون الأجداد ، وبما هيأه للناس من أقباس النور يستضيئون بها فى سيرهم المطرد الطويل .

حضرات السادة :

على هذا القياس يكون الأدب هو أسلوب التعبير عن عواطف النفس وخوالج الحس وخواطر الفؤاد . أو هو تصوير أحاسيس الانسان وترديد شعوره وترجمة آلامه أو هو التغريد بمثله العليا والهتاف بأغانيه والشدو بأحلامه . أو ذلكم كله ، فيكون هو اللسان المعبر ، والترجمان الصادق ، والمرآة الصافية المجلوة ، لما فى المجتمع من فضيلة ورذيلة ، وكمال ونقص وتوثب وخمود ، وتقدم وجمود ، ويكون بهذا هو النور الذى يشع ويضىء ، فيكشف جوانب المجتمع ، ويبدد ظلمتها ، ويزيل كربتها ، ويبدل ضعفها قوة وجمودها تقدما وخمودها توثبا ، بما يسوق ويرسل من قول مشرق ، وبيان موفق ، ولفظ جزل ، وخيال بارع ، وأسلوب ساحر ، يستولى على النفوس ويأخذ بمجامع القلوب .

وليس من شك فى أن من يتصفح أدوار التاريخ ، و يتمعن فى أطوار الحياة ، ليرى أن المجتمع فى كل زمان ومكان لم يشعر بالعظمة والسمو إلاحين تألق فيه الأدب وأشرق واحتل منه أسمى وأعز مكان . أجل ، فما عرف التاريخ مجتمعا تنقل من ضعف إلى قوة ومن ذل إلى عزة ، ومن حياة ضيقة فاترة الى أخرى نيرة باهرة ، إلا كان الأدب عماد ذلك وظهيره — بل دليله ونصيره — وما عشق الناس الفضيلة ونفروا من الرذيلة ، ولا سعوا إلى المجد وأبوا الذل ، إلا بقوة الأدب وروعته . ان مثل الفضيلة أو المجد تعلقت بهما النفوس وهفت لها القلوب ، وطارت حولها الأفئدة ، وان حكى عن الرذيلة أو الذل ، اقشعرت لها الجلود ، وارتعدت الفرائص ، وتصدعت جوانب الانسان .

بل إن مجتمعا لا يشرق فيه الأدب ، ولا يلمح ،لهو مجتمع مائل البنيان متداعى الأركان لا يستقيم له أمر ولا يستقر له حال .

نعم . هو مجتمع خامل جامد لا أمل له فى تقدم ولا نهوض .

أيها السادة :

لقد تدفقت أحاسيسى وتصويرى للأدب وعظمته ! مترا حمة متنا كبة ، فكان أن تدفقت كلمات منثورة ليس لها غير حقها رباط ؛ وليس لها سوى صدقها قوة .

ماهو هذا المجتمع الذى يخدمه الأدب ؟ !

المجتمع لفظ قصير المبنى غزير المعنى . .

إن ذكرناه ذكرنا آمالنا له . . نجاهد لها . . ونعنى فى سبيلها . .

و إن ذكرناه ذكرنا العدل يسوده . . والحنان يغشاه . . والاخاء يعمه . . والتساند يشده . . وذكرنا الجمال والكمال ، والرقى والتقدم ، والسعادة والهناءة . كل هذه تظله وترعاه .

ومن لكل هذه سوى الأديب فى روعة جهاده وشدة كفاحه وقوة نضاله وعظمة نزاله؟

و إلا فهل وجدتم غضبة على ظلم وجور ، أو ثورة على تعسف أو استعباد — سياسيا كان أو اقتصاديا أو اجتماعيا — إلا كان الأدب بأشعته الوهاجة هو موقدها وملهبها ، حتى يدك من الظلم والجور . . وينهار بنيان العسف والاستعباد ؟

وهل وجدتم قومة لمعنى جميل وغرض نبيل . . أو دفعة نحو تقليد كريم ومذهب جديد، إلا كان الأدب بنفثته الأخاذة هو القوة السحرية التى تدفع النفوس إليه ، مستعذبة كل بذل ، مستمرئة كل عطاء ؟ .

ليت شعرى ، إن الأمثلة على كل ماذكرت ، لأكثر من أن تحصى وأجل من أن تستقصى . .

الأدب والدين

و إذا كان الدين هو دستور الأخلاق والفضائل ، ومنظم الصلات بين الانسان وأخيه ، و بين الانسان وخالقه ، والينبوع الذى نجد فيه دائما العزاء لأرواحنا والإلهام لنفوسنا والطمأنينة لقلوبنا — إذا كان ذلك هو شأن الدين فينا ، ومكانته منا ، أفلا ترون أنه استعان بالأدب ليؤدى رسالته ، و يصيب أهدافه ، و يحقق الأغراض التى نزل من أجلها ؟ وهل الرسالات السماوية التى أوحى بها إلى موسى وعيسى ومحمد — عليهم الصلاة والسلام — إلا نماذج رفيعة من الأدب الالهى ، أعجزت الناس لفظا ومعنى ، ولكنها ملكت سبيلها إلى أفهامهم ، و بلغت مرماها من نفوسهم ، لأنها صيغت بأسلوب الأدب ، وتحدثت اليهم بلغة الأدب ؟

و إذا كنا نحن معاشر المسلمين — وليس عندنا أقدس ولا أعز من ديننا — نفخر بتراثنا الإسلامى الضخم ، ونشعر شعورا صحيحا ، بأننا جميعا — فى مشارق الأرض ومغاربها أعضاء أسرة واحدة ، فما ذلك إلا بفضل الأدب العربى الذى توقفت على حياته حياتنا ، واتصلت به روابطنا ، وعاشت بفضله لغتنا ، وتقاربت به الأرواح و إن تناءت الأجسام !

ترى هل يسعنى و يسع المقام . . أن أرجع بكم خطوات إلى التوراة والانجيل ثم إلى الياذة هومروس وما فعلت جميعها يوم ظهرت فى النفوس ، وأن أتقدم بكم خطوات أخرى إلى القرآن الكريم وسمو أدبه وأثر بيانه ، حتى جعل من أولئك البدو سادة للدنيا أعزة فيها . . فجعلوا من مجتمعهم البدوى المتقفر . . مجتمعا يفيض حضارة زاهرة باهرة . . ما أحوج عالم اليوم أن يرجع إليها ليجد فيها ريه وغذاءه وهديه وعلاجه .

ألم يرسم القرآن الكريم للمجتمع أصلح دستور وأعدل قانون ولم يترك شأنا إلا عالجه حتى جعل كتاب الفرنج ومصلحوهم يقتبسون من آياته و ياخذون بأحكامه وعظاته ، و يتأدبون بآدابه بل إن بعض الرسامين والفنانين قد استهلوا فنهم من بعض آياته — إن كتابنا المجيد هو الأدب الأكبر — ولقد أضفت بلاغة القرآن على البيان العربى كله ثوبا جديدا قشيبا ، وأخذ الشعراء والكتاب يلتمسون لمنظومهم ومنثورهم حلية زاهرة من آداب القرآن . فأسعدهم حظا وأرفعهم فنا من يقتبس من آياته فيحسن الاقتباس ، أما ما أشاع القرآن فى المجتمع البشرى من آداب ، فأجل من أن يحصر ، وكفى من تأديبه وتهذيبه للمجتمع أن صان البنات من الوأد ، وحرم الجمع بين الأختين ، وحظر الزنا والميسر والخمر ونظم الزواج والطلاق والمعاملات والإرث ، ووضع للحرب قواعد وآدابا لو اتبعت حق اتباعها لخفت وطأة المذابح البشرية وانتفى كثير مما نرى فى الحروب من قسوة ووحشية .

ثم بعد القرآن الكريم ، خطب النبي العظيم وأحاديثه ، مازالت ترهف الأحاسيس وتفعل فى النفوس السحر الحلال ، تتصعد بهم إلى العلا درجات إثر درجات .

ثم خطب خلفاء المسلمين وقادتهم وشعر شعرائهم وكتب كتابهم ، مما كان يوقظ عواطف السخاء والبذل فى النفوس ، حتى تجود بما تملك راضية طيعة . أو يكفكف عبرات المحزونين ويضمد جرح المنكوبين . فيتلقون الشدائد ، وقلوبهم عامرة مؤمنة ، أو يلهب حماس المجاهدين . . ويذكى هم المحاربين . . فى سبيل عقيدتهم أو مجد دولتهم فيبذلون الأرواح راضية مطمئنة .

الأدب كنوع من الثقافة

سيداتى وسادتى

لكل هدف من أهداف الاصلاح ، ولكل ناحية من نواحى خدمة المجتمع ، وسيلة تنتهى إلى غاية ، والأدب فى خدمة المجتمع يعتبر إحدى وسائل هذه الخدمة ، وأداة من أدواتها . ولكنه يمتاز فى ذات الوقت ، أسوة بسائر العلوم والفنون ، بأن يصلح لأن يكون غاية قائمة بنفسها ، بوصفه لونا من ألوان الثقافة التى تطلب لذاتها ، كما يصلح لأن يكون وسيلة من وسائل الإصلاح بوصفه أحد العوامل التى تؤثر فى المجتمع بالتوجيه والتنوير والحث على التقدم .

ونعنى بذلك أن الأدب يمتاز عن غيره من القوى العاملة فى خدمة المجتمع ، كالمال والمنصب مثلا — فان رجال الاصلاح ، وقادة الأمم ، ودعامة النهضة ، لا ينشدون المتاعب ولا الأموال باعتبارها غاياتهم من الحياة ، بل يتخذونها وسائل لما يريدون

والأدب بهذا الوضع أو بوصفه غاية من الغايات التى تطلب لذاتها ، يؤدى أعظم الخدمات للمجتمع ، لأنه يرهف الاحساس ، ويسمو بالشعور ، ويرتقى بالمستوى الروحى للأفراد ، ويفتح الأعين على معانى الحب والخير والجمال ، ويطلعنا على أمجاد الماضى ، وحقائق الحاضر ، وأمل المستقبل ، فى صور مذهبة الحواشى ، ساحرة الرسوم ، جميلة المعالم . فالأدب روحى قبل أن يكون ألفاظا وإحساس قبل أن يكون تعبيرا .

ونشدان الأدب لذاته ، كلون من ألوان الثقافة ، أدى لمصر وللا قطار العربية والاسلامية رسالة قيمة ، أخذ يبدو من خلالها المستقبل الزاهر ، طلق الوجه ميمون الطلعة لأنه هو الذى أنشأ بين مصر وشقيقاتها وحدة ثقافية تعتز بها ، وهو الذى قام بدور السفارة بيننا وبين هذه الشقيقات فربطها برباط الوحدة الجامعة ، وهو الذى رشح مصر لزعامة العالم العربى ، وهيأ لها مكانها فى الطليعة .

وبذا تكون دراسة الأدب ، والالمام به ، والعناية ببحثه وتذوقه من دلائل رقى الشعب ومن علامات تقدمه ونهوضه .

وإن المرء ليستطيع أن يقع على حكم صحيح لحال أمة من الأمم ، اذا راجع آدابها ، وراجع نتاجها منه ، ومدى اهتمامها به .

فالآداب فى الأمة القوية الناهضة ، مزدهرة فينانة ، حافلة بالحياة والقوة . وفى الأمم المتأخرة ، تراها عقيما مجدبة القرائح ، سقيمة الخيال مغلقة الأذهان ، وترى الذوق فيها خشنا مانعا متهالكا لا روح فيه ولا حياة .

وإنه لمن الحق أن نسجل هنا لأدبنا العربى ، أنه حمانا من العبودية العقلية ، وحفظ لنا لغتنا وتقاليدنا ، وأبقى لنا على الصلات القديمة الكريمة التى تربطنا بماضينا ، فقدمرت على هذا الوادى أحداث كبرى ، وطافت به محن عظمى ، وتعاقبت عليه فتوح أعجمية متصلة الحلقات ، فناضل عنها الأدب العربى أيما نضال ، وحمى أرواحنا وألسنتنا وعقولنا أن تكون لها صبغة غير الصبغة المصرية ، ومن هنا ظل كياننا قائما ، وإن كان ضعيفا ، ومن هنا وجدنا السبيل أمامنا لنقوى ونسترد ما فقدنا .

وإذا انتقلنا الى غير بلادنا ، فهل يسع المقام أن نتكلم عن تولستوى وأثر أدبه فى روسيا ، أو شكسبير و برنارد شو وأثر بيانهما فى انجلترا ، أو فولتير وجان جاك روسو ممن لعبوا دورا خطيرا فى فرنسا ، أو نيتشه وغيره من أدباء ألمانيا ؟ ! أو تشرشل و بيانه الرائع الذى يتحكم به فى الروح المعنوية لأكبر امبراطورية فى التاريخ ، يغرس فى النفوس الصبر عند الشدة ، ويحفزها إلى المثابرة على النضال ، ويقوى يقينها بالنصر المبين .

أعود فأقول ليس هناك متسع من المقال أو المجال لكل ذلك .

فكل هؤلاء قد غيروا بأدبهم مجرى التاريخ فى حياة أممهم ، وأدوا به أجل الخدمات لمجتمعهم .

الأدب والإصلاح الاجتماعى

سيداتى وسادتى

لو أنعمنا النظر قليلا لوجدنا أن الأدب خير وسائل الاصلاح الاجتماعى وأقواها تأثيرا فهو و إن بدا منظوما أو منثورا . و إن اتخذ سبيله فى الناس كتابا يقرأ أو خطبة تلقى على المنابر أو تذاع على أمواج الأثير ، وإن سلك الى المجتمع سبيل الصحافة أو السينما أو المسرح أو الأغانى فانه — فى جميع هذه الحالات — ينهض برسالته ، ويهدف إلى غايته ، وهو — فى جميع هذه الحالات — يرقى بالأذواق ، ويمكن للأخلاق ، وينشىء الأمة الحية ، ويصل العواطف بالعواطف والقلوب بالقلوب ، والحاكم بالمحكوم .

ولو أننا ألقينا نظرة عاجلة مرتجلة على خطوات التاريخ ، وهو يتنقل بها ونبدأ فى طريقه الطويل ، فرأينا أن كل ما تعرضت له الانسانية قديما وحديثا ، من عوامل التقدم والتأخر وكل ما ذاع فيها من الآراء والمعتقدات ، وكل ما ترتب على هذه الاراء والمعتقدات من اتجاهات فكرية وانقلابات اجتماعية وسياسية ، إنما كان مقرونا بالأدب ، ناشئا عنه .

و إنكم لتعرفون ذلك وتقرأونه ، فلا مجال للتفصيل والتطويل ، كما أنكم تعرفون وتقرأون أن الأدب هو الذى قرر حقوق الانسان . وأنه هو السلاح الذى انتصر على الظلم والطغيان ، فالأديان — كما ذكرنا أولا — استعانت به فى التبشير بمبادئها ، والفلسفة اتخذته وسيلة أساسية لنشر آرائها ، والثورات السياسية والاجتماعية تذرعت به فى إذاعة أهدافها و برامجها .

فالأدب إذن أيها السادة والسيدات قوة هائلة ، عظيمة الأثر فى المجتمع ، وكثيرا ما سيطر الأدب على بلاطات الملوك ودواوين الوزراء ، وكان هو الموجه للسياسة العليا والمنظم لحياة الدولة ، وكثيرا ما أقام الحروب وأنهاها ، و بعث الفتن وأماتها .

أليست حرب العرب لكسرى قد نشبت تلبية لاستغاثة فتاة حاول الفرس العبث بها ، فثارت النخوة فى القبائل ، وأجمعت أمرها لتنفذ عرض فتاة وشرف أمة ، وكان لها ما أرادت .

أليس " شبل " غلام السفاح قد هيجه بالبيت المشهور .

فضع النطع وارفع السيف حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأعمل سيفه فى فلول الأمويين ، ووضع أساس دولة بنى العباس التى ملأت الدنيا علما وأدبا وحضارة ، وقويت فى ظلها شوكة الاسلام .

وقبل ذلك . ألم تكن كلمة من الخنساء شيعت بها أولادها السبعة الذين قتلوا فى حربهم إلى جانب سعد بن أبى وقاص ، سببا فى إثارة المجتمع العربى كله ؟ فقد علمت الأمهات أن الخنساء حين نعى إليها فلذات أكبادها لم توجه همها إلى الحزن عليهم ولطم الخدين من أجلهم ، بل وجهت همها إلى المعركة هل ربحها المسلمون ، فلما عرفت أنهم ربحوها حمدت الله على أن جعل أولادها فداء لدين الله . تسامع الناس بهذا فكانت الأم تدفع وحيدها إلى الميدان ولا تبالى أن يقتل فى سبيل الله .

وتلك المعركة الضروس التى استعر أوارها بين على كرم الله وجهه ومعاوية رضى الله عنه ، ألم تكن الخطب البليغة ، والبيان الحماسى من أهم أسلحتها ، بجانب السيوف والدروع والرماح ؟ . أجل — فكل هذا حق وأيم الله . .

تتابعت العصور العربية ، وتعاقبت الدول ، ولكل أمير شاعره أو شعراؤه ، ولكل ديوان كاتبه أو كتابه ، ولكل عظيم حاشيته من أهل الأدب والفن والطرب ، ولأولئك جميعا أثرهم فى السادة الذين هم خلفاؤهم ، ولهؤلاء وهؤلاء أثرهم فى المجتمع الذى فيه يعيشون .

الأدب والنهضة الوطنية والاجتماعية

ولقد كان أدبنا العربى بعض الوسائل أو أهم الوسائل ، التى استعملناها فى إدراك أمانينا الوطنية ، يوم ثرنا ثورتنا التاريخية الكبرى ، بقيادة زعيمنا الراحل (سعد زغلول)، ومن بعده خليفته مصطفى الأمين. ونهضنا نطالب بحقوقنا ونسترد حريتنا الضائعة، ونجاهد للوصول إلى المنزلة الكريمة التى أعدها التاريخ لوطننا العزيز .

ففى هذه الثورة ، لم تكن الأمة العزلاء الناهضة تملك إلا سلاح الحق والايمان ، لتحارب الحديد والنار ، وتناضل بقوته المعنوية ، تلك القوى الضخمة المادية .

بل إنها لم تكن تملك إلا سلاح الأدب ، حاربت به أولا ضعفاء النفوس فطردتهم من الصفوف ، ثم عادت فصرخت به صرختها المدوية التى أيقظت النائمين وحركت الجامدين . وزادت المؤمنين إيمانا ، ثم كرت به كرتها الموفقة على القيود فحطمتها ، وعلى الأغلال فأزاحتها ، وعلى المستعمرين فسوّت معهم الأمر ، وصححت الوضع ، وأدنت منها الآمال . . .

إذن فالثورة الوطنية التى كللت بالظفر ، والتى كتب لها الفوز ، مدينة للأدب المصرى بما أثارته خطبه من حماسة ، ومقالاته من غيرة ، وبما حققته فنونه المنظومة والمنثورة، من قوة إقناع . وبراعة توجيه ، وصادق تعبير عن أمانى الحرية والاستقلال .

وإذن فهنضتنا الحديثه . . سياسية كانت أو اجتماعية . . كان الأدب سلاح قادتها ووسيلة أئمتها وهداتها . .

وهل كان غير الأدب فى أنواعه المختلفة وألوانه المتباينة عماد النهضة وقوام الإصلاح وملهب الشعور ، والمصدر لكل ما تفيض به قلوبنا من تطلع إلى المثل العليا ، وتحفز للغايات النبيلة وتعلق بالأهداف السامية المجيدة فى هذه الحياة . .

وهل كان غير الأدب فى أشعته الوضاءة الوهاجة . . من صحافة وقصص وشعر وتمثيل وغير ذلك أول خادم للمجتمع ؟ .

ومن منا يستطيع أن ينكر على الصحافة خدمتها للمجتمع وتنويرها للرأى العام فيه وتوجيهها إياه الى تسديد الرأى كلما حزب الأمر وأعضل المشكل .

أو ينكر عليها قوتها وعظمتها عندما تتصدى لتحارب الظلم حتى تهدده وتناوئ العسف حتى تدكه . . وتناهض العبث أو التفريط حتى تقضى عليه . .

أجل وعندما تنبرى تذود عن الحق المهضوم حتى تغلبه . . وتدعو إلى الواجب النبيل حتى تستأديه ، فتثير النفوس وتدفعها دفعا اليه .

وهل ينكر منكر على التمثيل خدمته وروعته ، وما يقدم للقلوب من رى وللأرواح من غذاء ، وما يلقن من معان للبطولة والمجد وأمثلة للسمو والكمال . . فى طلاوة وحلاوة ، حبيبة إلى القلب أثيره عند الفؤاد .

ثم هل ينكر منكر على القصص أثره وسحره . . ودوره الذى يعبه فى توجيه الأفكار . . وتقويم النفوس . وتهذيب المجتمع . وبث أرق المذاهب وصقل أسمى التقاليد .

وأخيرا هل ينكر منكر على الأناشيد والقصائد والأغاريد أنها تثيره من الاحساس وتوقظ هاجع المشاعر إلى أسمى المعانى وأرق الغايات ؟

حضرات السادة .

لو سئلت عن استشهاد ومثال . . للسهل الممتنع لأحلت سائل لفوره إلى (الأدب فى خدمة المجتمع) فلقد أعفيت نفسى من ذكر أمثلة أو سرد استشهادات . . إيمانا منى بأن الأمر من الصدق والحق ومن الوضوح والجلاء بحيث لايحتاج إلى أى دليل أو استشهاد و إيمانا آخر بأنى لو نحوت هذا النحو ما وسعنى المقال ولا المقام .

أعفيت نفسى من كل هذا . ومع ذلك أجدنى مهما سردت أو ذكرت لا أبلغ من الموضوع إلا أطرافه ولا أصل منه إلا إلى جوانبه . .

ولكن علام هذا العناء ، وفيم هذا الإجهاد لكم ولى ، والأمر يبدو غير كل هذا ؟

أجل فما أردتم من محاضرة اليوم أن أقف بينكم أثبت أن الأدب فى خدمة المجتمع ، فذلك ما لا يجهله إنسان أو يختلف فيه اثنان . . .

إنما أردتموها ياشباب الآداب بيعة منكم للآداب . . كما أرادها قبلكم شباب العلوم بيعة للعلوم . عز عليكم أن تنفرد كلية العلوم بهذه المبايعة ، وأن تكون وعلمها فى خدمة المجتمع وحدها . فهرعتم لم يستقر لكم قرار . ولم يهدأ لكم بال . حتى جئتمونى تعلنون إلى أنكم وأدبكم فى خدمة المجتمع ، وإنها لبيعة صادقة وعهد وميثاق ، بينكم و بينى كوزير لشؤون المجتمع . فما أسعدنى ببيعكم الذى بايعتم به ، وما أهنأ مصر بكم و بما قدمتم من عهد وميثاق .

أى أشبال الأدب وأسوده . . .

ليست لى ريشتكم فأصور لكم مجتمعكم أدق تصوير ، وأحلله لكم أصدق تحليل . . وليست لى قوة بلاغتكم أو روعة بيانكم فأرهف منكم الاحساس وأستثير فيكم الحماس . . فكل ذلك أنتم أهله ومصدره .

فليس على إذن كوزير للشؤون الاجتماعية ، إلا أن أرحب بكم أجمل ترحيب . وأسلم إليكم مكانكم مع المجتمع لتحرسوه ، ونصيبكم من بنائه لتقيموه .

ها هو ذا المجتمع يا أشبال الأدب يئن من ثالوثه المخيف — الجهل والفقر والمرض — وما جرت وتجر ثلاثتها عليه من آثار وأخطار .

فهلا حبرتم أقلامكم ، وأعملتم بيانكم ، لتردوا جهله علما ونورا . . وفقره يسرا ورخاء . . ومرضه قوة وفتوة ؟

ها هو ذا يشكو الفقر من تضامن الوجدان ، والجدب رغم تجاوب الاحساس ، و يغشاه ظلم اجتماعى . . اقتصادى . . فهلا أذكيتم تضامن الشعور والوجدان ، وجلوتم القلوب والنفوس؟ هيا اجعلوه كالبنيان المرصوص ، أو كالجسد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

يا شباب الأدب وأشباله . .

هيا بشعركم ونثركم وخطابتكم وقصصكم . . هيا اهزجوا له بجميعها أهازيج المجد وانشدوا له بها أناشيد الخلود .

هيا انشروا فى جوانبه الجمال والنور . والذوق والفن والكمال .

هيا أشيعوا فيه أمجد التقاليد وأسمى المثل وأشرف الغايات .

هيا بثوا فيه قويم الأخلاق ، ونبيل العادات وكريم الصفات ، وحاربوا فيه ضعف الخلق ، ومرض الضمير ومتجر الرأى ، وزائف القول .

وفى كلمة . . . هيا . . . هيا . . . هذبوه ونوروه وجملوه .

هيا يا شباب الأدب عامرة قلوبكم بالايمان ، قوية نفوسكم بالأمل ، كبيرة همكم بالرجاء

هيا متزودين بزاد المجاهدين ، متسمين بسمة المكافحين ، متزرين بإزار البنائين المشيدين شيدوا انا المجتمع راقيا ، وأودعوه من سمو خيالكم سموا ، ومن جمال تصويركم جمالا .

فالأدب فى خدمة المجتمع . بيعة صادقة ، وعهد وميثاق .

فحافظوا على بيعكم الذى بايعتم به ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا .

سدد الله خطاكم ، ووفقكم وهداكم فى ظل حضرة صاحب الجلالة مليكنا المحبوب "فاروق الأول" حفظه الله وأبقاه .

والسلام عليكم ورحمة الله ،

فؤاد سراج الدين